المحاضرة (09): النقد الأيديولوجي

تمهيد:

يقوم النقد الإيديولوجي على مراجعة البعد الدلالي وما يتصل به من تراكمات فكرية، يسعى النص الأدبي لنقلها وتبليغها، غير أن الاتجاه النقدي وبحكم تشعب روافده لم يستطع بلوغ نموذج نقدي مكتمل ومستقل من الناحيتين النظرية والإجرائية.

مفهوم الأيديولوجيا:

ظهر مصطلح (Ideology) أول مرة في اللغة الإنجليزية سنة (1796)؛ وتم اقتراحه ليكون مقابلا للمصطلح الفرنسي (Idéologie)[1]، أما في الأصل فهو منحدر من مصادر يونانية؛ ويفيد معنى علم التصور، القاضي بوجود الشيء وتحققه على مستوى الذهن[2]، وعادة ما يتعلق الأمر بمجموع الأفكار والتصورات التي يكوّنها المرجع الذهني في فهم المجتمع والحياة.

وبما أن الأيديولوجيا نموذج متغير بتغيّر طبيعة المرحلة؛ فضلا أنها تحدد ملاح العصر ومظاهره الفكرية الكبرى دخلت حيز البحث والدراسة المتخصصة؛ لتشكل لاحقا موضوعا «مؤداه علم الأفكار وخصائصها، وعلاقتها بالمجتمع والتاريخ السائدين، كما أنه منظومة الأفكار السياسية، والاقتصادية، والجمالية ... السائدة، وتحليلها ومناقشتها، كما أنها عند بعض المفكرين صفة للأفكار العقدية، ومنظومة شاملة لفكرهم الفلسفي الواقعي»[3].

تختص الأيديولوجيا بدراسة المنظومات الفكرية السائدة اجتماعيا وتاريخيا وسياسيا وفلسفيا واقتصاديا وجماليا وغير ذلك؛ بمعنى البحث في كل ما فكري من حيث الخصائص والعلاقات الممكنة، على مستوى الواقع، أخذا في الاعتبار مجموع التحولات الفاعلة في توجيه الخطاب الأيديولوجي.

---

[1]– ينظر: وليمز ريموند، الكلمات المفاتيح معجم ثقافي ومجتمعي، تر. نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، المغرب/لبنان، ط1، 2007، ص157.

[2]– ينظر: الشيخ رشيد عطية، معجم عطية في العامي والدخيل، ضبطه وصححه خالد عبد الله الكرمي، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1956، ص343-344.

[3]– محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ص147.

وبما أن المرجع الأيديولوجي حاضر في جميع أشكال الخطاب المعرفي؛ نجده يستمد كثيرا من محمولاته منه؛ فيتخذ تبعا لذلك صفة المذهب السياسي أو الاجتماعي؛ بمعنى أنه يملك القدرة على ممارسة التنوع في دعمه لعنصر الاختلاف على الصعيد العالمي، كما تستمد الأيديولوجيا شرعيتها وحضورها المستمر من الأتباع سواء تعلق الأمر بالحزب أو الشعب أو المجتمع أو الأمة، وغير ذلك[1].

تناولت الدراسات الفكرية العربية المعاصرة مصطلح الأيديولوجيا؛ حيث انتقل إليها من اللغة الأجنبية بواسطة التعريب؛ أما عن الدلالة التي اتخذها فاختلفت من باحث لآخر تبعا لتخصصه، ولعل من أبرز المحددات المعرفية لهذا المصطلح وأكثرها تداولا؛ الآتي[2]:

1- الأيديولوجيا علم للأفكار؛ يدرسها من حيث النشأة والتطور، وكذلك الخصائص والقوانين، كما يهتم بعناصر التأثير الاجتماعي.

2- الأيديولوجيا منظومة فكرية حاضرة في جميع مجالات المعرفة، بما فيها السياسة والقانون، والدين والأخلاق والجمال والفلسفة، وغيرها، وهي قائمة على مستوى الوعي الإنساني، تتوسط البنيتين الاجتماعية والتاريخية؛ فضلا أنها عبارة عن نسق فكري زائف يعارض الواقع السائد ويناقضه؛ نظرا لوجود خلل في التوازن بين البنيتين العقلية في مسارها التطوري، والواقعية في مسارها الاجتماعي والتاريخي.

3- الأيديولوجيا منظومة فكرية ذات مرتكزات واقعية متوافقة على صعيد البنيتين الاجتماعية والتاريخية، وحسب المفهوم الماركسي فإنها تملك القدرة على التعبير عن القوانين والعلاقات الاقتصادية السائدة في المجتمع، وإذا كانت تتدخل بقوة في توجيه البنية الواقعية، فإنها مستقلة عنها نسبيا؛ كونها في الأصل من نتاج الفرد، كما تنتج عن التأثير المتبادل بين أشكالها المختلفة.

4- الأيديولوجيا منظومة شاملة للأفكار الفلسفية في الواقع العقائدي، الذي ينزع إلى التعنت والتعصب، وهذا النوع من الأيديولوجيات ليس من السهل التعامل معه.

---

[1]- ينظر: أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج1، عالم الكتب نشر وتوزيع وطباعة، القاهرة، مصر، ط1، 2008، ص143-144.

[2]- ينظر: إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، المعجم المفصل في اللغة والأدب (نحو – صرف – بلاغة – عروض – إملاء – فقه اللغة – أدب – نقد – فكر أدبي)، مج1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، أيلول (سبتمبر) 1987، ص275.

علاقة الأدب بالأيديولوجيا:

إن أي أثر أدبي لا يسعه إلا التعبير عن محمولات فكرية معينة، و«عندما تدخل إلى النص هذه الحالة من الوعي التي نسميها الأيديولوجيا، فإنها تتخذ شكلا مختلفا؛ ذلك لأن الإيديولوجيا تعيش في الظروف العادية كما لو كانت شيئا طبيعيا تماما، وكما لو كان خطابها الخيالي السلس يزودنا بتفسير محكم موحد للواقع، ولكنها بمجرد أن تتحول إلى نص فإن كل ثغراتها وتناقضاتها تتعرى وتتكشف، ورغم أن الكاتب الواقعي يقصد إلى توحيد كل العناصر في النص، فإن ما يجري في العملية النصية يفضي بالضرورة إلى ثغرات، وانقطاعات تُناظر عدم اتساق الخطاب الإيديولوجي الذي تستخدمه؛ ذلك لأنك "إذا أردت أن تقول شيئا فلابد من أن تصمت عن أشياء غيره"»[1].

يكشف النص الأدبي عن النسق الإيديولوجي المؤسس له بكل تفاصيله وتناقضاته، وإن كان للأديب طرائقه الفنية الخاصة في جعل الرسالة الإيديولوجية تلتبس بالأساليب الأدبية الدالة عليها، ثم تأتي المقاربة النقدية الإيديولوجية لاستنطاق المحمول الفكري الكامن وراء الاشتغال الأسلوبي.

وإذا كان الأدب يتمثّل الأفكار، ويستفّز الناقد للبحث في إشكالية تعبيره عن الواقع الحامل للقيم الإيديولوجية فإن العمل الأدبي بوصفه ممارسة فكرية يعكس رؤية للعالم؛ على أساس «أن العمل الأدبي من حيث هو إيديولوجيا بطبعه، إنما هو تعبير عن رؤية العالم؛ أي عن وجهة نظر ما حول الحقيقة، وهو ليس عملا فردانيا، وإنما هو عمل جماعي، مع العلم بأن نمط التفكير الذي يفرض وضعه في بعض الظروف على مجموعة من الناس، أو على طبقة معينة منهم، يمثل في الكاتب الذي يفكر ويحس هذه الرؤية ويعبر عنها، ويرى الماركسيون أن لكل زمان موضوعاته العامة التي تلائم البنية الاجتماعية التي تعالج مشاكلها»[2].

يعدّ العمل الأدبي عملا جماعيا بحكم نقله لرؤية العالم التي ليست من إنتاج الفرد بل تنتجها الجماعة، ومن هنا يستمد الأديب مادة الإيديولوجية في ممارسة الكتابة الأدبية، أخذا في الاهتمام الإبداعي متطلبات الواقع الاجتماعي وما يرتبط به من قضايا ومشكلات.

[1]– رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر. جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (عبده غريب)، القاهرة، مصر، 1998، ص70.

[2]– عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص105.

يؤكد الفيلسوف الفرنسي "ألتوسير" «أن الأعمال الأدبية العظيمة ليست مجرد إفراز لإيديولوجيا مهيمنة، بل إن ما فيها من خيال يتيح للقارئ مسافة تكشف له تلك الأيديولوجيا الكامنة فيها، والتي ترفض – بوصفها أعمالا فنية – أن تنضوي تحت لوائها»[1].

إيديولوجيا الأدب تحتكم إلى خاصية العنصر المهيمن، غير أن الإنجاز الأدبي لا يقوم على إنتاج الأثر الفكري وحده، بل يُلبس هذا التصور الخطابي أقنعة جمالية من شأنها خلق قدر من المسافة بينه وبين القارئ الذي يجد نفسه إزاء المتخيل الفني في بحثه عن الدلالة الإيديولوجية الكامنة وراءه.

خطوات التحليل في النقد الأيديولوجي:

ازدهر النقد الأيديولوجي في فترة السبعينيات؛ حيث أخذ طابعا دعائيا واجتماعيا في محتواه؛ بمعنى إخضاع العمل الأدبي لوتيرة التطابق ورؤية الواقع؛ وهذا جعله يسير في اتجاه نقدي كلاسيكي من الوجهة الواقعية، المعتمدة على مقولة الانعكاس المباشر؛ بينما نظرية الانعكاس أو المحاكاة هما على قدر من التعقيد يتجاوز هذا التصور بمراحل[2].

أما عن خطوات التحليل في النقد الإيديولوجي فإن مادة هذا النقد تقوم على «ملاحقة المضمون، وحصر أطرافه، إن المضمون هو المطلب وليس سبيل أو أدوات توصيله، والمضمون قد يكون سياسيا، اجتماعيا، طبقيا أو نفسيا أو ذهنيا، ولكنه إذا حاد أولا عند مفهوم "نضالي" و"تبشيري" فهو مرذول، وبالتالي فالنص محكوم عليه سلفا بالإعدام من قبل الناقد، ومن ثم فإن المقياس الأول لهذا النقد قائم على مبدأ تراتبية المضمون الأدبي»[3].

يتتبع النقد الإيديولوجي المضامين الفكرية في النص الأدبي؛ حيث يعمل على تحديدها بوضوح، ولا تعنيه الأساليب الفنية المعبّرة عنها، وأن الحكم النقدي على الأعمال الأدبية بالجودة أو ضعف مرتبط بخصائص هذا المضمون بغض النظر عن محتواه؛ إذ يستحسن فيه الدعوة إلى النضال من أجل قضية فكرية ما، أو التبشير بطرح أيديولوجي معين.

قد يظن البعض أن المنهج الأيديولوجي في النقد الأدبي محكوم بسلطة معينة لا يمكنه الاشتغال خارج حدودها؛ إنها سلطة المضمون التي لابد له أن يفرضها على النص وصاحبه؛ لكن الحقيقة غير ذلك؛ فهو «منهج لا يريد أن يسلب

[1]– سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي – إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، المغرب – لبنان، ط3، 2002، ص327.

[2]– ينظر: أحمد المديني، الأدب المغربي الحديث، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2023، ص46.

[3]– نفسه، ص46.

الأدب أو الفنان حريته، وكل ما يرجوه هو أن يستجيب الأدب والفنان لحاجات عصره وقيم مجتمعه بطريقة تلقائية، وهو لا بد مستجيب إذا فهم وضعه الحقيقي في المجتمع، وأدرك مسؤوليته الكاملة، ونهض بالدور القيادي الحر الذي يعزز مكانة الأديب والفنان، ويرتفع بها إلى مستوى الإيجابية الفعالة التي يعتبر الاحتفاظ بالقيم الفنية الجمالية أهم وسيلة لتحقيقها، فالأدب أو الفن بغير القيم الجمالية والفنية، لا يفقد طابعه المميز فحسب، بل يفقد أيضا فاعليته؛ لأن تلك القيمة الفنية والجمالية هي التي تفتح أمامه العقول والقلوب»[1].

لا شك أن الاهتمام النقدي بالمضمون لا يتعارض مع العناية بجمالية الشكل، التي يستحسن استثمارها في الجانب التبليغي الإقناعي المتعلق بنقل الرسالة الأيديولوجية من النص إلى المتلقي؛ ومن هذا المدخل توظف القيم الفنية في خدمة القيم الفكرية وليس العكس، وأن استجابة الأدب لروح العصر ومتطلباته تتقدم جميع الاهتمامات، بالنسبة لهذا النوع من الممارسات النقدية.

الوظائف النقدية في المنهج الأيديولوجي:

لا شك أن كل مقاربة نقدية إجرائية تتخذ لها مسارا منهجيا معينا في تحليل المنجز الأدبي ودراسته، كذلك الحال بالنسبة للمنهج الأيديولوجي في النقد الأدبي؛ الذي يُعنى بأداء مجموعة من الوظائف والمهام، التي يمكن حصرها في ثلاث وظائف؛ هي[2]:

أولا: تفسير الأعمال الأدبية والفنية يُتيح للقارئ فرصا أكبر لفهمها، وإدراك مقاصدها الظاهرة والمستترة، ومعرفة تصورها للواقع، وفي هذه الوظيفة يكون النقد خلاقا؛ حيث يضيف إلى العمل الأدبي قيما جديدة بالإضافة إلى القيّم الجمالية التي يتمتع بها.

ثانيا: تقييم الأعمال الأدبية والفنية بأبعادها المختلفة؛ خاصة من حيث المضمون الفكري، والشكل الفني، وأساليب المعالجة اللغوية، وكذلك عناصر الإضاءة في التصوير وطرق التلوين والتشكيل بالنسبة للفنون الأخرى، مع مراعاة الأصول الجمالية لكل فن والاطلاع على مظاهر تطورها عبر العصور.

[1]– محمد مندور، النقد والنقاد المعاصرون، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/ مصر، مارس 1997، ص190.

[2]– نفسه، ص190-191.

ثالثا: توجيه الفنانين والأدباء إلى الأخذ بقيم العصر وحاجات المجتمع ومطالبه، وقد أثارت هذه الوظيفة جدلا واسعا راح ينصرف إلى أسلوب الاشتغال الإبداعي أكثر مما يعنى بالمبدأ الفني في حد ذاته، غير أن أهم ما في هذه الوظيفة أن تفسح المجال للعبقريات الأدبية والفنية للتعبير عن روح العصر وحاجاته بكل حرية.

خلاصة:

لا يتجاوز النقد الأيديولوجي الوسائط الفنية والعناصر الجمالية في النص الأدبي؛ بحكم أنها تضفي عليه صفة الأدبية التي يختص بها، إلا أنه ينظر إليها من زاوية الأدوار الذي تؤديها في نقل المضامين الفكرية التي يتخذ منها موضوعا له في الدراسة والتحليل، مع التأكيد على البعد الوظيفي للرسالة الأدبية وأثرها في خدمة الرسالة الاجتماعية.